

# العودة الى أوراق الذاك

ان تخضه ، ان تقلبه ، واخيراً ان تغيره لتقيم بديلاً ، افضل منه ؟ يكاد الانسان ان يقول : لا .. لكن رغم المرارة التي يحسنها من لا يملك سوى الكلمة ، ورغم قناعته انها لا تزال سلاحاً ثانوياً ، وتأثيرها لا يتعدى خفقة ريش واطشارة طريق ، فان من يكون سلاحه هذا لا يجد مفراً من اللجوء اليه لكي لا يختنق ويموت .

وفي ظلال الحلم - الرغبة لا يجد مفراً من ان يقول شيئاً ، ان يكتب شيئاً ، ومن خلال السخاء ان يرفع الحدود ، في ان تحمل الكلمات بعض الدلالات ، يفامر ، يصلب نفسه آلاف المرات كل يوم ، لعله يستطيع ان يخلص الآخرين من خلال نضائه المستمر من اجل خلاص نفسه ! هذه .. وعشرات الافكار والرغبات الأخرى تعبر حين يمسك الانسان القلم ، حتى لو اراد ان يكتب اسمة وعنوانه ، لكن مع ذلك ، بالرغم من ذلك ، فان مجازفة الكتابة تبقى حارة نفاذة مثل رائحة الدم التي تملأ كل شيء في هذا الوطن .

هذه اذن محاولة ، ومحاولة في اصعب الظروف ، ليس لان الموضوع من الاتساع والرحابة الى درجة يعجز عنها كاتب واحد فقط ، وانما لان الاوراق احترقت في النيران الكثيرة التي بدأت منذ أكثر من ربع قرن ولم تنته بعد ، ولان الرحيل الدائم لم يبق من الاشياء في الذاكرة الا لمعانها الاول .

## اوراق الذاكرة :

.. في ذلك اليوم الشتائي البعيد ، في شباط ١٩٥٤ كنا نتابع بلهفة ، عبر راديو قديم كبير الحجم من ذلك النوع الذي كان سائداً آنذاك ، اخبار الانتفاضة الشعبية التي حدثت في سورية ، والتي استهدفت اسقاط النظام الديكتاتوري واعادة الحريات انديمقراطية للشعب ، بعد سنوات عجاف من اتحكم الفردي المتسلط .. في ذلك

.. ربع قرن كامل ، خمس وعشرون سنة ، كأنها العصور في رحلة هذا الزمن المثلث بالاحزان والقلق والتغيرات والحروب .. وامل المستقبل الافضل ايضاً ، وكأنها ، في الوجه الاخر ، ايام سريعة تشبه الخيول الجامحة في انطلاقتها نحو المجهول والموت !

ماذا يستطيع الانسان ان يكتب في ظل الحرائق ورائحة الموت وشبح الرحيل الدائم ؟ ماذا ابقت هذه الخمس والعشرون من السنين في الحقائق وعلى جدران الذاكرة ؟ واخيراً ما فائدة انكلمات التي كتبت او التي تكتب الآن ما دام الانسان العربي يعيش تحت وطأة الموت المباشر ، المادي والمعنوي ، وما دامت شريعة الغاب هي التي تسيطر على الواقع العربي من المحيط الى الخليج ؟

لقد حصلت اشياء كثيرة ، اكبر من الكلمات واقتسى آلاف المرات في هذني الخمس والعشرين سنة ، ولانها بهذه الضخامة والقسوة والخوف والتهيب يمنعان من تحويلها الى حروف سوداء ، او مجرد كلمات وافكار غير قادرة على الوصول الى ذلك الشموخ النادر المثال ، والذي لا يحصل الا في فترات التغير الكبرى والانتقال .

ان كثيراً مما حصل اقرب الى الخرافة وعدم التصديق ، وكأنه كابوس دام ، او شيء يوآزي المستحيل ، واذا لم تكن الكتابة قادرة على تفجير تلك انفجارات المميتة ، ذلك الطوفان الذي لا يعرف التوقف ولا يترك امامه شيئاً ، فعندئذ ستكون الكتابة اقرب الى الخيانة ، او في احسن النوايا ، مساهمة في سوق النخاسة الذي بدأ منذ وقت طويل ولم ينته بعد .

هل يمكن للكلمة ان تصبح بتأثيرها واهميتها موازية للفنيلة ، للطاقة ، لحيل المشنقة ؟ هل يمكن ان تفجر هذا العفن المتراكم ، والذي يعلو يوماً بعد اخر ، ليصبح الملح الوحيد للحياة العربية المعاصرة ؟ هل يمكن للكلمة ان تفجره ،

# سيرة عبر الأدب

الوقت ، وعن طريق ذلك الراديو المختلق ، كنا نتحرق من اجل سماع كلمات قليلة : سقوط الديكتاتورية وعودة الديمقراطية .. او بكلمة واحدة : الحرية .. وكانت تتمثل بسقوط النظام انقائم من خلال النضال الشعبي ، وارتفاع رايات الديمقراطية من جديد لتواصل سورية دورها .

... وخلال الفترة الواقعة بين بلاغ واخر ، بين قبيلة واخرى ، بين مظاهره ورمصا الشرطية ، بين حضور صوت الراديو وغيابه ، كنا نطالع بعض الكتب وناقش كيف كانت الاوضاع وما يجب ان تكون عليه .. وكنا من الكتب نستخرج الافكار والاحلام ، وكانت بين هذه الكتب : « الأدب » ، فنقرأ اشعارها وقصصها وترجماتها .. وكانت تؤكد لنا بحروفها المضيئة المتوهجة ان الحرية لا يمكن ان تغلب ، وان الديمقراطية حق لا يمكن التنازل عنه ! هل كانت هذه اول ذكرى واول لقاء مع الاداب ؟

لا .. كانت قبلها ذكريات ولقاءات كثيرة ، ولكنها اقل حدة ولمعانا ، او لم تكتسب معانيها المحددة في غمرة التعب والانتظار والتخفي .. وكانت ما تزال بين الشك واليقين .. هل يمكن في ظل الظروف التي سادت المنطقة آنذاك ان تولد مجلة جديدة تتغنى بالمستقبل وتبشر بالحرية وتحمل معها احزان واعباء مرحلة كاملة ؟

لقد كانت المرحلة كلها ، في تلك الايام ، مليئة بالاحزان والاضطهاد والسجون ، وكانت فلسفة الحكام لا تتمثل بتقييد الحريات وتحديد الديمقراطية وانما كانت تتمثل بالغاء هذه المفاهيم التي بدأت تتسرب الى العقل العربي لتصبح من مقوماته الرئيسية ، ولتصبح الهم اليومي لكثير من المثقفين واتجاهير ، ولتأخذ شكلا منظما عبر الاحزاب ، ولتصبح اخيراً نضالاً يومياً لا يتوقف ولا يهدأ .

لقد كانت المرحلة كلها ، في تلك الايام ، مليئة بالاحزان والاضطهاد والسجون ، وكانت فلسفة الحكام لا تتمثل بتقييد الحريات وتحديد الديمقراطية وانما كانت تتمثل بالغاء هذه المفاهيم التي بدأت تتسرب الى العقل العربي لتصبح من مقوماته الرئيسية ، ولتصبح الهم اليومي لكثير من المثقفين واتجاهير ، ولتأخذ شكلا منظما عبر الاحزاب ، ولتصبح اخيراً نضالاً يومياً لا يتوقف ولا يهدأ .

لافتراض اذن ان اول لقاء وذكري للاداب كانت هذه،

هل يكون ذلك من خلال المفاهيم التي لم تعد مجالا

للمناقشة حول حرية الانسان في الاعتقاد والتفكير والتنظيم والاتصال وحرية المراسلة والسفر . . هذه المفاهيم التي عبر عنها الاعلان العالمي لحقوق الانسان واصبحت شريعة واقعية في معظم بقاع الارض ، في الوقت الذي لسم يعترف بها في الارض العربية ، رغم التواقيع الخضراء والزرقاء التي مهر بها ممثلو العرب هذه الوثيقة ؟

هل يكون ذلك من خلال الوقوف في وجه المد الرجعي الاسود الذي ساد المنطقة في الفترة التي تلت هزيمة ١٩٤٨ ، والذي حاول ان يستغل التكبلة من اجل مزيد من الارتباط مع الغرب واحلافه وقواعده ، واعتبار الغرب قدرا لا يمكن مقاومته او الوقوف في وجهه ؟

هل يكون ذلك من خلال الوقوف في وجه التيارات الاقليمية التي انتشرت وحاولت ان تفرض منطقها وفلسفتها في فترة التراجع ؟

هل يكون ذلك من خلال تأكيد عروبة بعض الاقطار التي كانت تناقش في تلك الفترة هل هي عربية او غير عربية ؟

هذه . . واخرى غيرها ، بعض ملامح الفترة التي ولدت فيها الآداب ، ولانها ولدت في هذه الفترة فقد تصدت بكثير من الجراءة الى طرح هذه المفاهيم ، وخاضت من اجلها معارك كبيرة .

واذا كان جزء مما نراه آيوم قد استقر في وجدان المواطن واصبح حقيقة لا يناقش فيها ، فقد كان ماثرا للمناقشات والاختلافات في فترات سابقة ، ولا يزال جزء اخر ماثرا للمناقشات والاختلاف حتى الآن . . وخاصة الان ، ولا تزال الآداب تساهم فيه .

لم تكن الآداب في اية فترة من الفترات مجلة بعيدة عن الواقع ، كانت انعكاسا له في جانب ، وكانت مبشرة بالآتي في الجانب الاخر ، ومن خلال تعبيرها عن واقع الجماهير وهمومها ورغباتها وطموحها ، ومن خلال ما تطرحه من الافكار وما تعكسه من واقع المجتمعات الاخرى ، كانت تساهم في تشكيل فناعة المواطن وتملا وجدانه .

لم تكن مجلة « الآداب » مجلة للآداب فقط ، كانت مجلة للفكر بكل مجالاته ، وحتى الآداب الذي فتحت صفحاتها لاستقباله كان ادبا من اجل خدمة الحياة ، ويعبر عن فكر جديد لا عهد لكثير من المجلات التي سبقتها اليه .

لقد ثارت « معارك » عديدة قبل صدور الآداب ، وكانت هذه المعارك ، وان حدثت في نهاية النصف الاول من هذا القرن ، تنتمي الى معارك العصور الوسطى ، سواء من حيث المواضيع او الاساليب . واذا كانت تلك المعارك قد شغلت كتاب تلك المرحلة ، وكانت من الشراسة والحدة الى درجة كبيرة ، فان الاجيال الجديدة كانت بعيدة عنها ، وكانت تنشغل بهوم مختلفة ، وتعب عن ذلك في المقاهي الشعبية ، في دهاليز الجامعات ، في

الحلقات الصغيرة والتجمعات والمنتديات . كانت الاجيال الجديدة تبحث بلهفة عن اشياء مختلفة ، وكانت تربد تجاوز الفكر السائد ، ذلك الفكر الذي انتهى منذ وقت طويل في اماكن اخرى ، لكن الجيل المثقف الذي درس في اوربا في مطلع هذا القرن حمل في طريق عودته ما كانت اوربا تريد ان تتخلص منه وان تتجاوزته .

كان الصراع بين الاجيال قويا عنيفا ، وكان غير متكافئ ايضا . ففي الوقت الذي كان يمتلك الجيل الاول كل شيء ، كان الجيل الثاني لا يملك الا القليل . كان الجيل الاول يمتلك الاسماء الكبيرة ، الواجهة ، النفوذ ، القوة . . . وكان يمتلك ايضا وسائل تعبيره . . اما الجيل الثاني فكان يمتلك فقط رفضه ورغبته في التجاوز ، وذلك الجنون الذي يجعل كل شيء ممكنا ويجب ان يناضل من اجله .

في ظل هذه المعركة غير المتكافئة جاءت الآداب . قدر لها اناس كثيرون ان تقول كلمات قليلة وتنتهي ، كما تنتهي في بعض الاحيان افكار واساليب تخلقها الصدفة وتدفع بها الى سطح الاحداث ، وتصبح خلال فترة من الزمن تقليعة مثل غيرها ، ومحكومة مثل غيرها بظروف الزمن العابر .

وقدر لها اصدقاؤها ان تواجه من الصعوبات الكثير الكثير ، وان الجهد الذي يقوى على احتمال التحديات والمصاعب لا يمكن ان يقوم به فرد واحد ، ولذلك نظروا اليها نظرة تمتزج فيها الرغبة بالشفقة ، ولم يتفألوا كثيرا ، بل ظنوا ان مرحلتها لم تبدأ بعد ، وعليهم ان ينتظروا وقتا اطول .

في ظل هذه الاجواء والشروط جاءت الآداب ، واذا كانت جدارة اية مجلة وقدرتها على الاستمرار والصمود تنشأ بالدرجة الاولى من خلال الافكار التي تعبر عنها والاجيال التي تخاطبها والمرحلة التي تمثلها ، فان الآداب قد جاءت لتعبر عن افكار جديدة وعن اجيال جديدة وعن مرحلة جديدة ، وهذه كلها تتطلب عقلا وارادة ونظرة مختلفة عما هو سائد ، نظرة مختلفة نوعيا . فالاسماء الكبيرة لم تعد تعني كل شيء بعد ان فقدت القدرة على التعبير عن المرحلة ، والوجاهة يمكن ان تفتح ابواب الوزارات لكنها لا تستطيع ان تفتح قلوب الجماهير ، والنفوذ يمكن ان يوظف لمحاربة الخصوم لا تكسب اصدقاء جدد ، والقوة ليس مظهرها الوحيد ان تصدر عشرات المجلات والصحف ولا يقرأها احد !

في ظل الظروف غير المتكافئة بين الجيلين ، كما اشرنا ، بدأت المحاولات هنا وهناك ، على شكل تجمعات صغيرة ، او نشرات مكتوبة بخط اليد ، او على شكل مجلات لا تستطيع ان تصدر الا عددها الاول ثم تتوارى ، نظرا للملاحقة الدائنين والسايطات ومحاسم التفتيش « العصرية » !

واذا كانت الفنون التشكيلية ، خاصة الرسم ، قد

لحالة من الحالات وانما رغبة من رغبات التكريس والتأييد ، وتراجع او زال من وسائل التعبير الرسمية كل التراث الشعبي للفناء الوطني الذي ساد في فترات سابعه، والذي ولد جزء منه في ظلمات السجون والمنافي البعيدة او تحت ظلال المشانق .

ان حالة من الركود والتراجع وانهبوط سادت وسيطرت خلال فترة السيطرة الاجنبية ، واستمرت بعد ذلك ، ولان البرجوازية العربية « الصاعدة » ، والتي استلمت السلطة بعد ان تراجعت القوى الاستعمارية المحتلة، هي مزيج من الاقطاع والطبقة التجارية ، ومرتبطة الى حد بعيد بالمرحلة السابقة ، وليست تقيضا لها ، ولانها متخلفة ضمن مقاييس البرجوازية الصناعية التي سيطرت في الغرب ، فقد كانت وسائل تعبيرها متخلفة ايضا ، ولم تتجاوز الوسائل التي كانت سائدة في ظل الاحتلال المباشر .

ضمن هذه المعطيات كان من الصعوبة بمكان كبير ان تتغير الصورة الفنية او الادبية ، نظرا للأسباب التي ذكرنا بعضها ، ونظرا للتخلف الكبير الذي ميز الحركات السياسية، حتى التقدمية ، سواء من حيث تنظيمها وتأثيرها ، او من حيث نظرتها الى وسائل التعبير هذه ،

ان النظرة الى الادب والفنون هي جزء من النظرة الى المجتمع ، وهي جزء من الفلسفة التي تنبع منها تلك النظرة او تحكمها ، فما دامت النظرة الى المجتمع، والتي تنبع منها المواقف السياسية محكومة بهذه العقلية والاساليب البدائية ، وافرزت تلك الاشكال والعلاقات ، فان الادب والفنون كانت في نهاية قائمة الاولويات بالنسبة لتلك الحركات . يضاف الى ذلك ان الفترة المقصودة كانت محكومة ايضا ، في الجانب التقدمي، بنظرة خاطئة وملتزمة وعميقة في نفس الوقت، ولقد ادت بدورها الى افراز اشكال ومفاهيم ساهمت ، بنسبة معينة ، في التخلف الذي ساد وسيطر في تلك المرحلة .

ولان الكثير من الفنون الحديثة المتأثرة بالغرب لم تجد الاجواء والامكانيات التي تساعدها في التعبير عن نفسها ، حتى داخل الحركات السياسية الجديدة ، فقد بدأت تعبر عن نفسها باشكال فردية ، او ضمن مجموعات صغيرة ومحدودة ، وظلت اقرب الى الهموم الذاتية ، او في احسن الاحوال ، كم تصيح بعد هما شعبيا ، فالكثير من الروابط والصلات التي تنشأ في مجتمعات سليمة ، وتعبر عن نفسها في ظل الحرية ، لم تتوفر بعد ، ولم يخلق التفاعل الضروري من اجل الوصول الى صيغ جديدة .

وهكذا ظلت الافكار والاشكال القديمة هي المسيطرة، وظلت وسائل التعبير ذاتها ، مع تغييرات جزئية اقتضتها طبيعة المرحلة ، وخلقت طموحات واوهاما جديدة ، اضافت الى التراث التعسفي الذي كان سائدا عبئا جديدا . اصبحنا اذن امام حركة مركبة ، حالة اكثر تعقيدا

استطاعت ان تشق لنفسها اخاديد صغيرة هنا وهناك ، من خلال المعارض الشخصية والجماعية ، ومن خلال الدعم والروافد التي ساندتها في فترة من الزمن ، سواء من قبل الفنانين الوافدين ، ومن قبل البرجوازية الصاعدة التي تطمح في ان تزين جدران قصورها اعمارية بشيء من ثقافة العصر، فقد استطاعت بعض الفنون التشكيلية ان تتقدم ضمن ظروف افضل نسبيا . . اما باقي الفنون فقد ظلت تعاني الكثير ، اذ ما عدا الشعر ، والذي كان ينتقل شفويا ، ويشكل تجاوزا لكثير من المدارس والشعراء المسيطرين واتسائدين ، ظلت هذه الفنون بحاجة الى وسائل تعبير جديدة او آلي امكانيات مادية غير متوفرة لها . فالمجلات التقليدية التي كانت اقرب الى الحلقات الصغيرة الخاصة ، والمقصورة على مجموعات بذاتها ، لم تكن تنظر الى الجيل الجديد نظرة ثقة ، وكانت لا تفسح مجالا الا بمقدار ، ومن خلال الفجوات الصغيرة التي سمح بها آنذاك لم يستطيع النفاذ والوصول الا قلة محدودة ومحظوظة .

اما الفنون المعقدة ، والتي تحتاج الى امكانيات كبيرة ، سواء اكانت السينما او المسرح ، فقد ظلت محكومة بقوانين خاصة ، وكانت هذه القوانين من الصعوبة والقسوة بحيث لم تنشأ لها تقاليد ولم تتطور ضمن اشكال عصرية نامية، فما عدا المجالات التي اقتصرت على الترفيه والاغاني لم تتقدم السينما ، وما عدا المحاولات التي اقتصرت على ترجمة بعض المسرحيات العالمية وتقديم قسم منها ، لم ينشأ مسرح الشعب ، ولم يولد الكاتب المسرحي المحلي ، واذا استثنينا توفيق الحكيم الذي اهتم بالمسرح الذهني، المسرح من اجل القراءة بالدرجة الاولى ، فان النص المسرحي المحلي لم يظهر في هذه الفترة .

وما يقال عن المسرح ينطبق على السينما ايضا ، فقد خضعت الى قوانين الربح والخسارة ، ضمن مفاهيم مجتمع متخلف ، واقتصرت على التقليد السطحي ، وبدأت تتراجع سنة بعد اخرى ، وتحكمها الصدفة والتفريط والتركيب النفسي المصطنع .

اما الموسيقى الشعبية المتطورة فقد كان جو الارهاب الذي ساد خلال فترة معينة من القسوة والارهاق التي درجة ان البذور الاولى التي نمت وترعرعت في ظل التغييرات الاجتماعية الكبرى ، وعلى ايدي موسيقيين شعبيين موهبين امثال سيد درويش وبيرم ، ان هذا النوع من الموسيقى تراجع في مرحلة تراجع الحركة الشعبية والسياسية ليحل محله نوع آخر ، يراد به ان يلائم المرحلة « الجديدة » ويستجيب لها .

واقتصرت الموسيقى القربية المتطورة على مجموعات صغيرة ، ولم تصل الى وجدان الجماهير .

وهذه الحالة ذاتها تنطبق على الفناء ، فالتفني بامجاد الملوك العرب والاعاجم ساد وانتشر، والاشادة بحياة الفلاح « السعيد » والريف في ظل الاقطاعي ، لم يعودا مجرد ذكر

أثركة ، وان يسهم في اعطاء مفهومها بعدا اضافيا لاغناؤه وتوضيحه وتحديده ، واذا لم يتوفر لهذا النشاط الابداعي تلك الصفة ، فانه لا يحظى بهذه التسمية ، ولا يمكن اعتباره اضافة نوعية جدية .

واذا كان مجرد ظهور « الاداب » ، ضمن الظروف والشروط . . والمفاهيم التي اشرنا اليها ، مساهمة في النشاط الابداعي ، فان المواقف والمبادرات والمساهمات . . والمعارك ايضا ، كانت تعبيراً عن هذا النشاط .

ولما كانت « الاداب » مجلة للاداب والفنون ، بالدرجة الاولى ، وتتركز همومها ومعاركها الاساسية في هذا المجال قبل غيره واكثر من غيره ، فقد بدأت اولى المعارك في مجالات قبل غيرها واكثر من غيرها ، ومن جملة المعارك الرئيسية التي خاضتها كانت معركة الشعر احر ، الالتزام ، الرواية ، المسرح ، التراث ، شعر المقاومة ، وعشرات المعارك الاخرى .

وما دام الانسان لا يملك اوراقا ، فان الافكار التي يمكن ان يعرضها اعتمادا على الذاكرة تشيير ولا تسجل ، وتذكر ولا تستعرض ، لان الاشارة من ذاكرة محترقة ، وفي ظل اجواء الحزن والرحيل والموت . . تبقى محاولة ، وغالبا ما تخيب المحاولة ، لكن مع ذلك فان الكثير من المحاولات تستحق المفاخرة والاقدام ، مهما كانت صعبة ، فلاحاول اذن الاشارة الى بعض ما حصل في ظل الحرائق والرحيل الدائم وانتظار المجهول !

### الشعر احر

صحيح ان بدايات الشعر احر تعود الى فترة سابقة لظهور الاداب ، لكن الاداب هي السجل الحقيقي لهذا الشعر ، بالدرجة الاولى والاساسية ، ولفترة طويلة . لقد حدث ذلك منذ البدايات الاولى . وفي هذا السجل لم تثبت تواريخ الميلاد والنسب وصلات اقربى فقط ، بل وثبتت فيه ايضا فلسفة الشعر ومبررات وجوده وجدارته ، ولقد خط ذلك كله جيل باكملة وليس الشعراء وحدهم . واذا كانت معركة الشعر احر قد حسمت منذ وقت طويل ، ولم تعد مجالا للمناقشة من حيث كونه شعرا او غير شعر ، وانه جدير بالبقاء ، فان المعارك التي رافقت تلك البدايات من الاهمية والاتساع والعنف بحيث ان اصداؤها لا تزال حتى الآن !

كلنا يتذكر مواقف الشعراء التقليديين وفلاسفة الشعر التقليدي . . ولعل العقاد ، « شاعرا » وناقدا ، واحد من هؤلاء ومن تلك المواقف . . وكلنا يتذكر المعارك العنيفة التي حصلت قبل العقاد وبعده . واذا كان هذا الشعر قد عمد وتم الاعتراف به ، ولم يعد احد يناقش في انتسابه ، فان المعارك الاولى ساعدت كثيرا في وضع القواعد وتكوين التراث له ، ولقد ساهم الشعراء الرواد انفسهم في التعبير عن الطبيعة الجديدة لهذا الشعر ، وقدموا نماذج كانت من القوة والاصالة الى درجة اصبح

وصعوبة من تلك التي كانت سائدة من قبل ، واصبحت الاجيال الجديدة تعاني اكثر من السابق ، لان الكثيرين ممن كانوا في ركاب المستعمر غيروا جلودهم واستمروا في نفس المواقف ويملكون نفس السلطات ، ومن تلك المواقف والسلطات ، أخذوا يمارسون اساليب اشد قسوة من قبل لقمع اية محاولات جديدة ، ونسد الطريق امام الاجيال التي عرفت المذاهب والاساليب العصرية وبدأت تحاول التبشير بها . لكن شيئا جديدا بدأ يظهر في هذه المرحلة : الطموحات والافكار التي اخذت تتكون اكبر من محاولات القسوة والترويض ، والاشكال السائدة لم تعد قادرة على الاحتواء واستمرار قرض السيطرة ، هذا في الوقت الذي بدأت تذبل وتموت الصرخات العمياء القديمة - « الجديدة » ، واصبحت وسائل تعبيرها من التهافت والضعف بحيث لم تعد تقوى على الصمود والاستمرار . وكانت اولى المعارك التي وقعت في هذه المرحلة هي معركة الشعر احر .

صحيح ان معارك عديدة سبقت معركة الشعر احر ، خاصة معارك الديمقراطية والمعاصرة والتراث ، وعبرت عن نفسها باشكال عديدة ، في الصحافة الجديدة ، في البرلمانات التي قامت بعد الاحتلال ، في الندساتير الجديدة ، في الافكار والشعارات التي بدأت تطرحها وتطالب بها الحركات السياسية التقدمية ، في الفضبات الجماهيرية الواسعة التي حدثت في اماكن عديدة من الوطن العربي ، ثم في التغيرات التي اخذت شكل هزات كبيرة ، هنا وهناك ، لكن ظلت معظم هذه التغيرات ضعيفة وعمياء ، لانها لم تستند الى دليل نظري واضح ومتكامل . وحتى الحركات التي كانت اكثر تقدما من غيرها لم تستطع ان تقدم افكارا واضحة عن الكثير من المفاهيم والشعارات التي تنادي بها . . وفي نطاق الادب والفن . . لم تستطع هذه الحركات ان تقدم المساعدة الفعالة او النماذج المتفوقة لاقناع الناس ودفعهم الى الامام خطوات كبيرة .

واذا كانت « الاداب » قد جاءت في هذه الفترة ، فترة المخاضات السياسية الكبيرة ، وفي اعقاب تغيرات سياسية عاصفة ، فان الهم الذي انطلقت منه ، رغم الاعلان غير المباشر ، كان الديمقراطية والمعاصرة . وخلف الشعر والقصة والمسرحية والرواية والدراسة كانت تكمن المفاهيم الجديدة عن الديمقراطية والمعاصرة ، وكان هذا الهم المحرك الاساسي في الاختيار ، وفي المواقف والمعارك التي خاضتها .

ان مقياسا ما يمكن بالضرورة وراء جميع المواقف ، واذا كان الفكر انمكاسا للواقع المادي ولحركة المجتمع ، فان التعبيرات المباشرة وغير المباشرة عن المواقف والسلوك ، في الاداب والفنون ، وفي جميع النشاطات الاخرى ايضا ، تنبع من حركة المجتمع ومن المواقف الذي يفسر هذه الحركة ويعطيها ابعادها ومفهومها . ولذلك ، ومن اجل التعبير عن الجديد ، فلا بد لكل نشاط ابداعي ان يعبر عن هدم

معها هذا الشعر ، فيما بعد ، الطريقة الوحيدة ، او الاساسية ، في المرحلة الحالية .

لا يعني هنا ان تؤكد من هو الذي كتب اول قصيدة في هذا الشعر ، بلند التحديري ام نازك الملائكة ام بدر شاكر السياب ، المهم التأكيد ، هنا ، ان رواد هذا الشعر وجدوا ضالتهم في الاداب ، ووجدوا السند او الحائط الذي يعلقون عليه قصائدهم ، ومن خلال الاداب قدموا ، اضافة الى الشعر ، فلسفة هذا الشعر ومبرراته واروع نماذجه . . واستطاعوا بالجهد والمثابرة والتفوق ان يكرسوه نهائيا .

ان معركة الشعر الحر من اهم المعارك واكثرها خصوبة واهمية في التاريخ البكر للاداب ، ويعدها انتقل هذا الشعر الى دواوين العرب ومنابرههم ومجلاتهم ، واصبحت له تقاليد وحصانة ، ولم يعد مضطرا للدفاع عن النفس او التوازي في دهاليز الجامعات او في زوايا المقاهي الشعبية ، اصبح مخلوقا حيويا ينتقل من مكان الى آخر واضحا جريئا . . ومتهورا في بعض الاحيان . . وتم الاعتراف به نهائيا .

### الالتزام

من القضايا البارزة التي شغلت قسما كبيرا من المثقفين ، ولا تزال اثارها باقية الى الآن ، قضية الالتزام: لمن يكتب الاديب ؟ هل الالتزام يتناقض مع الحرية او الوجه الآخر لها ؟ هل الادب والفن وسيلتان للتغيير والمساهمة من اجل بناء عالم افضل ام هما وسيلتان للمتعة واشباع ذات الفنان قبل اي شيء آخر ؟

ان هذه القضية التي احتات مساحات كبيرة في صحافة الغرب ، وخلقت مناقشات طويلة بين تيارين في الفكر والفن ، وجدت اصداؤها في الصحافة العربية ، وانتقلت الى حلقات المناقشة والحوار بين المثقفين العرب ايضا . . واذا كانت قد حسمت بصورة معينة ، بنسبة معينة ، فان لحسمها في الفكر العربي ، دورا في سرعة حسمها بين المثقفين العرب ، اولا ، ولان طبيعة المشاكل والهموم السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تعيشها المنطقه العربية من الاهمية والثقل والالاحاح لدرجة تسلب انصار الفن للفن معظم اسلحتهم او كل اسلحتهم ، ثانيا . . ولذلك فان معظم الادباء والمفكرين العرب يتفقون في جوانب عديدة بنظرهم الى دور الادب والفن ، لكن الاختلاف ينشأ حول قضايا اخرى : الشكل والمضمون ، المدارس الاجتماعية والسياسية ، المدارس الفنية ، المقاييس التي يجب ان تعتمد في فهم وتقييم العمل الفني ، النظرة المتعائلة او المتشائمة التي توجه الفنان . . ومدى مساهمة هذه المدرسة او تلك ، هذه النظرة او تلك ، في دفع الامور الى امام . . وهكذا . .

لقد هزم انصار الفن للفن . . لم يبق منهم الا فلول هرمة وعاجزة . . وحتى هذه الفلول تحاول تقديم المزيد

من انبراهين والادلة ، ليس على اقتناعها بهذه النظرية ، وانما في تبنيتها لمواقف رجعية وغيبية ومضللة . . اما في سلوكها العملي فانها تصب في المجرى الاخر . . المجري الذي يخدم التخلف ، وتؤكد كل يوم مدى ارتباطها وعلاقتها السياسية !

ان مفهوم الالتزام وقع بين تيارين في الفكر العربي المعاصر ، تيار الوجودية وتيار الماركسية ، تكن التطورات التي طرأت على كلا التيارين الاساسيين انعكست بوضوح ايضا ، فلم يعد احد يتبنى التيار الوجودي الذي ساد خلال مرحلة معينة ، واذا كان هناك من يتبناه فان تأثيره محدود ، ومساهمته لا تتجاوز الدفاع عن الموقف الفلسفي اكثر منها القدرة على التعبير الابداعي عن هذا الموقف . كما ان الماركسية ، خاصة في مجال الادب والفن ، قد تطورت الى درجة كبيرة ، وعلى التجديد في الربيع الاخير . وبدات تقدم افكارا ومفاهيم جديدة ومختلفة عما كان سائدا في الفترة الستالينية .

ان استعراضنا لهذين التيارين لا يهدف الى التقييم قدر ما يهدف الى تسجيل بعض الملامح التي سادت الفكر العربي في فترة الخمسينات والستينات ، ويؤشر الخارطة الفنية والفكرية التي كانت سائدة آنذاك . وهذان التياران ، وان كانت لهما بقايا في الاعمال الابداعية ، بصفتها الاولى ، فان الاعمال الابداعية المعاصرة قد تجاوزتهما بمراحل كثيرة ، اذ لم يعد هناك من يصرخ صرخات سارتر او ينظر الى الحياة على انها الجحيم وان الاخرين هم الابالسة ، كما ان جدانوف توازي من الادب العالمي ، بما في ذلك الادب العربي ، واصبحنا الآن امام مرحلة جديدة ، وهذه المرحلة ليست نتيجة تراوج بين تيارين او مدرستين وانما تجاوز للمدرسة الاولى واعطاء مفاهيم ومضامين اكثر ايجابية ورحابة للمدرسة الثانية ، وبذلك حسمت احدى اكثر المشاكل تعقيدا وخطورة ، وكان حسمها لصالح الفكر التقدمي وانتصارا له .

لم تعد المسألة الالتزام في الادب والفن موضع خلاف من حيث المبدأ ، لكن نظرا لتعدد مدارس النقد ، فان كل مدرسة من هذه المدارس تعطي لمفهوم الالتزام حدودا تختلف عن الاخرى ، ولا تزال المسألة قائمة حتى الآن ، ولقد كان « للاداب » تاريخيا ، دور في هذه المسألة ، وان كان هذا الدور قد تأثر الى حد كبير بالمفهوم الوجودي خلال بعض المراحل ، لكنه استقل عنه وتجاوزه .

### القصة والرواية :

سوف يأتي يوم يكتب فيه تاريخ القصة والرواية العربية : متى بدأت ، كيف تطورت ، وما هو موقعها ضمن الفنون الاخرى ، وضمن تطور القصة والرواية في العالم ، وحتى ذلك الوقت فان القصة ، تاريخيا ، لا تزال تؤخذ ، اغلب الاحيان ، حسب الاقطار ، وتكاد تتميز بهذه الخاصية خلافا لفنون اخرى ، كالشعر والسينما

وتأثيرا بالمقارنة مع الوسائل التي كانت متاحة من قبل ، لكن القيود السياسية . خاصة في المرحلة الحالية ، أصبحت أكثر قسوة وشدة من اوقات سابقة، ورغم ذلك فان آية قصة او رواية جيدة تمتلك من الامكانية ما يوازي انكباب السياسي في بعض الحالات ، وتستطيع ان تتجاوز الكثير من العراقيل والقيود ، ولو بطريق التهريب .

هل حصل هذا بالصدفة ؟ هل حصل نتيجة التطور التقني ؟ هل حصل بظهور امكانيات قصصية وروائية في اقطار عربية عديدة وتخطيها للحواجز الإقليمية ؟

لا يتكرر ان عوامل عديدة ساهمت في خلق الظاهرة او الحالة التي نراها اليوم ، لكن يجب ان نسجل باعتراف كامل ان دور بيروت كان كبيرا وهاما ، وان في بيروت من المنابر والامكانيات ما اتاح وصول اصوت وصداه الى اقصى المناطق العربية ، وبعقلية متجاوزة للمتحق الذي كان سائدا ، وبخطيط عربي يهدف الى اقامة بناء متكامل للقصة العربية .

لقد لعبت بيروت دورا بارزا وكبير الاثر ، سياسيا وثقافيا ، خلال العشرين سنة الاخيرة ، ولقد لعبت « الآداب » دورا متميزا وهاما في مجال القصة والرواية واذا كان الدكتور سهيل ادريس قد أستطاع من خلال الاداب ان يساهم في ايجاد صحافة من نوع جديد ، فان مساهمته في بناء قصة ورواية عربية كانت هامة و اساسية ، ليس من حيث كونه قاصا وروائيا فحسب ، بل ومن خلال تكريس الاعتراف وتعزيزه لهاتين الاداتين من ادوات التعبير . حصل ذلك اولا من خلال اعتبار الاداب مجلة عربية بالدرجة الاولى ، عربية بمادتها وكتابتها واسواقها ، وثانيا في ايجاد تقاليد لم تكن مألوفة ، او لم تكن واسعة الانتشار ، حيث بنى التعريف بالقصاصين والروائيين العرب ، وتبنى اقامة مسابقات للقصة القصيرة والرواية . وقد لا يكون من المبالغة اذا اشرنا ان عدد ادمن المع كتاب القصة والرواية دخلوا هذا الملكوت من خلال الاداب ومن خلال الجوائز التي حصلوا عليها ، حين كانوا كتابا ناشئين ، ثم انطلقوا في رحاب المنطقة ، بحرص على المكانة التي حصلوا عليها ، او بتفريط ، تحت تأثير نشوة الظفر الاوتى ، ليستمروا في الكتابة القصصية والروائية . . او لينتهوا في اماكن اخرى !

بايجاز يمكن القول ان دور الاداب في بناء القصة والرواية العربية كان هاما وهو الان ، وفي المستقبل ، جدير بان يسجل ، كاحد مظاهر ومراحل تطور القصة العربية .

وضمن هذا المجال لم تقتصر الاداب على اقامة المسابقات وتخصيص الجوائز للقصة والرواية ، وانما ساهمت ايضا في تقديم نماذج ناجحة وهامة للقصة العالمية ، سواء تلك التي نشرت على صفحات الاداب مباشرة ، او التي نشرت بطبعات خاصة صادرة عن دار الاداب واذا كان من الضروري تقييم هذا الجهد وابرار

والموسيقى ، واذا كانت هناك ضرورة لتقديم بعض الاسباب التي تفسر هذه الظاهرة فلا بد ان يبرز ضمن هذه الاسباب: عدم الاعتراف بان دور المستقل والتميز لهذه الاداة من ادوات التعبير ، او عدم اعتبارها موازية في اهميتها للادوات الاخرى ، نظرا لضعف النماذج، ولتباعد الفترات الزمنية، اضافة الى تداخل هذه الاداة مع غيرها ، او عدم وجود قصاصين محترفين يعتبرون القصة والرواية همهم الاساسي او الوحيد . . اضافة الى استقلال شوء القصة والرواية في كل قطر وعدم ارتباط بين الاقطار ، ربما لاسباب سياسية ، في هذا المجال ، ولضعف حركة الكتاب في السوق ووجود العراقيل في وجه انتشاره . لذلك نجد ان القصة العراقية ظهرت وتطورت ضمن بيئة محلية ، وكذلك الحال بالنسبة للقصة السورية واللبنانية ، اما في الشمال الافريقي فالقد كان تأثير الثقافة الفرنسية عليها واضحا ، اضافة الى انقطاعها ، بسبب اللغة ، عن النماذج العربية ، مما اعطاها ملامح مختلفة . وما عدا القصة المصرية ، التي كانت اكثر انتشارا وتأثيرا فسي قصر الاقطار الاخرى ، واكثر تطورا ، ومن حيث توفر وسائل التعبير في وقت مبكر ، وامتدادها الى اقطار اخرى ، فان القصة العربية ظلت محكومة بقوانين وشروط محلية قاسية ، وهذه القوانين والشروط اعطتها ملامح وحددت لها مسارا جعلتها في النهاية ضعيفة البناء محدودة الانتشار ، واخرت بالتالي الاعتراف بها وسيلة اساسية من وسائل التعبير . هذا بالرغم من وجود نماذج بارزة وناضجة ظهرت في اكثر من قطر عربي ، فرغيف يوسف عواد ، وقصص فؤاد الشايب ، او شكيب الجابري وروايات ذو النون ايوب وغيرهم ، تعتبر متقدمة في جوانب كثيرة على قصص عديدة ظهرت في مصر ، لكن لم تتح لها فرص الانتشار والتأثير الا في الحدود المحلية ، عكس النماذج ، حتى الروائية ، التي ظهرت في مصر ، والتي غزت معظم الاقطار العربية واثرت سلبا على تطور القصة العربية .

لا شك ان طبيعة الاوضاع والعلاقات العربية ، ومستوى التطور ، بما في ذلك العلاقات الثقافية او مستوى الثقافة وانتشار التعليم ، لعبت دورا سلبيا او ايجابيا في هذا المجال .

ان هذا شيء من التاريخ وشأن من شؤونه ، وسوف يأتي يوم يقيم ويسبب فيه ذلك بوضوح ودقة . . اما الصورة التي تبدو لنا الان فانها شديدة الاختلاف ، اذ اضافة الى الاعتراف الكامل بالقصة والرواية ، باعتبارهما وسيلتين اساسيتين من وسائل التعبير ، فان الصفة التي بدانا نكتسبها ايضا هي انها عربية بالدرجة الاولى ، واصبح تقييمها يصدر من خلال هذه الصفة ، لانها اصبحت عربية من حيث قراؤها وتقادها ، رغم بعض المعوقات ، ورغم الملامح المحلية التي تميز قصة عن اخرى ، نظرا لمكان صدورها والموضوع الذي تتناوله .

لا شك ان وسائل التعبير المعاصرة اكثر قدرة

مطبوعا فقط ، فانها تكون محدودة الانتشار ، ولا تتكامل الا حين تعرض ، وما دامت الحركة المسرحية العربية ضعيفة ومحكومة بقوانين وقيد قاسية ، وما دامت الفرق المسرحية تتناول النص دون مقابل ، ودون استئذان في كثير من الاحيان ، فان من المفهوم الا تستمر المؤسسات الخاصة في القيام بهذا العبء وتحمل الخسائر الكبيرة نتيجة ذلك ، خاصة في ظل منافسة غير متكافئة وبشروط غير اقتصادية .

يضاف الى ما تقدم ان النقد المسرحي احتل حيزا مهما على صفحات الادب ، وامتدح ان يواكب الحركة المسرحية مواكبة مستنيرة وان يسدد خطواتها ، وان يقدم لها ابرز التطورات في المسرح العالمي ، ولقد كان لهذا النقد فائدة مزدوجة ، فهو من ناحية ساهم في تنمية ثقافة القارئ ، واطلعه على اخر تطورات المسرح العالمي ، ومن ناحية ثانية جعل الحركة المسرحية ، خاصة بالنسبة للعاملين فيها ، ضمن دائرة الضوء ، ورتب مسؤوليات اضافية تجاه المتفرج الذي اصبح يطالب بموضوعات ومستويات جديدة .

### التراث :

الرجعية السياسية بحاجة دوما الى سند فكري لكي تستمر بسيطرتها وتحكمها ، ولقد لجأت في كل المراحل ، وفي كل مكان ، الى ايجاد الاطار الفكري لتبرير السيطرة والاستقلال من جانب ، والى محاربة الافكار التقدمية والعصرية من جانب اخر . وكان لديها باستمرار « فلاسفتها » وكتابها وشعراؤها ، وكان هؤلاء يقومون بهذا الدور قناعة او ارتزاقا ، ويستفيدون من جميع الوسائل في الحروب التي يخوضونها ، وبشكل خاص من التراث . واذا كان في تراث كل شعب العديد من القيم والافكار والتقاليد ، فان الرجعية وفلاسفتها يلجأون دوما الى ما يؤيد ويدعم استقلالهم وسيطرتهم ، ويتناسون الجوانب الاخرى في التراث ، بل ويحاولون ان يدفنوا هذه الجوانب تحت ركام الاضاليل والارهاب ، وكثيرا ما لجأوا الى الدين والى السلطة الدينية من اجل تعزيز مواقفهم . اما القيم والافكار والتقاليد التي من شأنها محاربة الاستقلال ، والتي تدعو الى المساواة وتطالب بتحرير الانسان وابرار الجوانب الايجابية المشرقة في تراث وتاريخ الشعوب ، فقد كانت بعيدة عن متناول الجماهير وراقدة في بطون الكتب القديمة .

هذه الحرب المعلنة او الخفية بين مفهومين للتراث لم تقتصر على الفلاسفة المحايين ، وانما ساهمت فيها ايضا جهات اجنبية عديدة ، ولاهداف اقتصادية وسياسية ، فكانت حملات التبشير ، وكانت البعثات الكثيرة تحت عناوين متعددة ، من بعثات الآثار الى بعثات دراسة اوضاع الجماعات والاقليات ، الى دراسة اللغات واللهجات . . . والتاريخ . . الخ ، وكان الهدف الاساسي لهذه الحملات

ملاحه الايجابية ، فلا شك ايضا ان له ملامح سلبية انعكست بوضوح على مجموعات كبيرة من كتاب القصة والنقد ، وقد تمثل ذلك بالاسراف المبالغ فيه والذي طبع عددا كبيرا من ترجماتها خلال فترة من الزمن ، خاصة ترجمة الفكر الوجودي وترجمة معظم او كل ما كتبه كولون ويلسن ، اضافة الى عدم وجود خطة دقيقة في اختيار امهات الكتب العالمية في مجال القصة والرواية والنقد ، وترجمتها .

ان الهجمة الوجودية التي طفت فبي اواخر الخمسينات واول الستينات ، والتي تركت بصماتها الواضحة على الكثيرين ، قد تراجعت الآن ، ولم تعد اكثر من مجرد رافد من جملة روافد الفكر العربي والاسلوب العربي في التفكير والكتابة .

ان الجهد الفردي - مهما كان كبيرا وذكيا - لا يمكن ان يساهم الا في نطاق محدود ، كما لا يستطيع ان يكون بديلا عن الجهد الجماعي ، فالجهد الفردي محكوم بقوانين وعوامل ليست هي بالضرورة التي تحكم الجهد الجماعي ، ولذلك تقضي الضرورة تحرير الفرد من ضغط قوانين السوق المباشرة وافساح المجال لخيارات افضل من خلال جهد جماعي ، وربما رسمي ايضا ، والاعتماد على تخطيط بعيد المدى ، ووضع اولويات من نوع معين غير محكومة بعوامل المنافسة والربح السريع .

ومع ذلك ، وبالرغم من ذلك ايضا ، فقد استطاعت الادب ان تقدم عددا بارزا من الترجمات الهامة ، وان تساهم في حركة الترجمة والتبادل الثقافي . وان توفر للاجيال الجديدة ترجمات اكثر دقة واكتمالا من تلك التي كانت سائدة خلال فترة سابقة .

### المسرح

بموزاة الجهد الكبير الذي بذلته الادب من اجل اقامة بنين مستقل و متميز للقصة والرواية ، فقد بذلت جهدا بارزا ايضا في مجال المسرح ، فنشرت عددا من المسرحيات الهامة ، التي لعبت دورا في المسرح العالمي المعاصر ، نشرت عددا من المسرحيات على صفحاتها ، ثم اصدرت سلسلة المسرح العالمي ، ولقد كان لما نشره تأثير كبير على الحركة المسرحية العربية ، لانها هدفت من خلال اختيارها ان تقدم مسرحا من نوع جديد ، فاختارت مسرحيات ليست للقراءة فقط وانما للعرض ايضا ، ودفعت عددا من كتاب المسرح العرب الى الاهتمام بالموجسات المسرحية الجديدة ومحاولة الاستفادة منها .

وفي هذا المجال لم تقتصر على المسرح الوجودي ، وان كان قد احتل الجزء الاكبر من هذه السلسلة ، وانما قدمت مسرحيات اخرى ايضا : بستان الكرز مثلا .

ان عملية الترجمة في المسرح اكثر صعوبة وارهقا بالنسبة لفرد او مؤسسة نشر خاصة . فالرواية او الكتاب السياسي تكتسبان حياتهما المستقلة والكاملة بمجرد صدورهما ، اما المسرحية ، اية مسرحية ، حين تكون نصا



كلها أن تكون في خدمة الطبقات الحاكمة ، اجنبية كانت او محلية .

ولو استعدنا الى الذاكرة البعثات الاجنبية التي زارت المنطقة منذ مطلع هذا القرن ، وحاولنا دراسة نتائج نشاطها في المجال الفكري وحده ، نجد ان جزءا مهما من مرتكزات الفكر الرجعي مستمد من الافكار والاجتهادات التي روجت لها تلك البعثات ، خاصة في مجال التاريخ واللغة . فالتاريخ الاسود ، سواء بمادته او بطريقة فهمه وتحليله ، والذي يتناول تفسير آثرات على انه مجموعة من الفتوحات والحروب ، وانه تاريخ القادة والملوك ، وان الشعوب المتخلفة بحاجة فقط الى المستبد « العادل » ولا يمكن ان تحكم نفسها بنفسها . . ان هذا الفهم للتاريخ تلقفته الطبقات الرجعية وحاولت الترويج له ، ووضعت في مواجهة افكار العدالة والحرية والمساواة التي كانت تطالب بها الشعوب . وفي مجال اللغة ، ونتيجة لعصر الانحطاط الطويل الذي ساد خلال قرون ، فقد ساهمت البعثات الاجنبية في التأكيد على عناصر العامية ، وفي الفرق بقضايا فقه اللغة ونحوها وصرفها واشكال البديع والبلاغة ، دون الالتفات الى الجوانب الايجابية في اللغة ومحاولة تطويرها وجعلها اداة عصرية تستجيب لمتطلبات الحياة وضرورتها .

هذا الاستطرد في بحث موضوع التراث لا يستمد اهمية باعتباره جزءا من تاريخ المنطقة خلال مرحلة سابقة ، وانما لانه موضوع مثار في الوقت الحاضر ، وربما أكثر من السابق ، وبحاجة الى معالجة جديّة ومستمرة لاكتشاف الجوانب المتضخّنة فيه ، وتقديمها الى الجماهير لتكون سلاحا في يدها بمواجهة القوى الرجعية السوداء .

وإذا كانت الآداب بمجمل فهمها وموقفها من التراث قد ساهمت في ايجاد ثوابت أكثر ايجابية وفعالية من اجل اعادة النظر ، فان المهمة في المرحلتين الحالية والمقبلة تبدو أكثر اهمية والحاحا .

### شعر الأرض المحتلة :

مثل الصرخة المفاجئة في ظلمة شديدة السواد انبثق شعر المقاومة . . ومن الأرض المحتلة بالذات ، ليعلن اشياء كثيرة في وقت واحد : ليعلن أن روح الاصرار قوية السي درجة أن جميع قوى ومحاولات اليقي والقهر والعدوان لا يمكن ان تروضها او ان تنتزعها ، وان علاقة الانسان بالأرض مثل علاقة الاشجار والصخور ، وان الحرية رغبة تصل حدود الفريزة فلا تزول ولا تدمر ، وليعلن ايضا أن الشعر ، والشعر آجيد خصوصا ، اداة هامة من ادوات الحرب ، وهذه الاداة حين تنبع من القلب وتلتحم مع العقل وتنتشر بين المحرومين والمضطهدين تصبح اشد خطورة واكثر فعالية ، وليعلن ايضا ان ذلك الخيط المجدول من التاريخ والزمن والعذاب بين أجزاء الوطن ، رغم الحواجز والاسلاك المشائكة والالغام وراجمات الصواريخ . . ورغم

المستعمرات المصنوعة ، لا يمكن ان ينقطع او يتلاشى .

لقد فاجأ شعر الأرض المحتلة الشعراء والمثقفين أكثر مما فاجأ الناس البسطاء ، ومن هول هذه المفاجأة حدثت اشياء كثيرة لا تحدث في الاحوال الطبيعية عادة ، فبين عشية وضحاها اصبح هذا الشعر ينتقل من شفة لاخرى ، من مجلة لديوان شعر الى اغنية ، ودخل المعركة .

لنترك النقاد يقولون كلمتهم في ذلك الشعر ، لكن الذي يمكن تسجيله الآن ان هذا الشعر ، أكثر من اي شعر آخر ، لعب دورا بارزا وهاما ، وفي وقت شديد الدقة والخطورة . . واذا كانت هناك ادوات فنية كونت وجدان العرب المعاصرين ، وساهمت في تنفيذ روح المقاومة فان شعر الأرض المحتلة ، بالتوقيت ، بالخصوبة ، بالتفجر الصادق ، بالمعاناة ، بالمنفوان الجامح الذي لا يعرف التوقف او التسليم . . كان اسهاما بالغ الاثر في خلق روح جديدة لدى العرب ، وعزز الثقة بالنفس ودل ان العرب في الأرض المحتلة اقوى واصلب . . واكثر صدقا من العرب الاخرين !

لقد دخل شعر الأرض المحتلة المعركة كاقوى ما يكون المحارب واكثر ما يكون رباطة جأش وجسارة . . . وشراسة ايضا ، وهذه الصفات التي اكتسبها ليس من خلال رنين الفاظ المناسبات ، ولا من خلال الانفعال الانسي المؤقت ، وانما من خلال التشبث بالأرض ، من معرفة معناها ، من معاناة الاضطهاد المباشر . . ومن خلال معرفة العدو ايضا .

ان معظم شعر الأرض المحتلة من نوع خاص : فيه رائحة الأرض والبرتقال ، فيه نكهة الزعتر وقطرات زيت الزيتون ، وفيه تلك الاغاني القديمة المتوهجة الموحية ، وفيه حكايات الجدات التي لا تنسى . . وهذه المعاني ، التي غابت عن الكثير من اشعر العربي ، في الأرض غير المحتلة ، اكتشفها اولئك الشعراء الذين كانوا في البداية بلا اسماء ، بلا ملامح ، ثم فجأة اكتسبوا اسماء كبيرة وملامح شديدة الوضوح ، هي اسماء جميع الذين ينتظرون وراء الاسلاك المشائكة ، وملامح البشر الذين يعضون على جراحيهم باسنانهم انتظارا ليوم الخلاص . واصبح هذا الشعر عاملا مهما في تطوير الشعر العربي والحياة العربية . انه يعمق ارتباط الانسان بالأرض ويعزز مقاومته . . . ويقرب القلوب كثيرا ، لان هؤلاء الذين ينشدون ، اضافة الى الصدق والعفوية ، فانهم يتحدثون عن تجربة حارقة : عن عذاب عاشوه ، عن معنى ان يكون الانسان على ارضه ، في بيته ، ذليلا ، مهانا ، وغير قادر على ان يتحرك او يتنفس او ان يستحم في بحر وهواء بلاده !

لقد كانت الآداب من اوائل المجالات التي احتضنت هذا الشعر وعرفت معناه وخطورته ، وكانت من المساهمين في دراسة هذه الظاهرة واستخراج الرموز الكبيرة منها وتعميمها .

ان كثيرا من الاعمال الفنية والادبية تكتسب جزءا

لقد كانت بعض الاشارات التي وردت في الرسائل الخاصة ، او في مذكرات الكتاب ، اهمية كبيرة في تفسير العملية الابداعية ، ليس من حيث كونها عملا متكاملا وفي لحظته الاخيرة ، وانما من حيث الدوافع والمراحل وطريقة البناء وعشرات الملاحظات الصغيرة او الكبيرة الاخرى التي كونته بهذه الطريقة وعلى هذا الشكل .

وإذا كنا في المرحلة الحالية نستطيع فهم بعض الاعمال الابداعية الهامة بصورة افضل ، فقد كان الكثير من الاشارات الخارجة عن العمل ذاته ، سواء من الاوراق الخاصة او من ملاحظات الذين كانوا على صلة بصاحب العمل ، اهمية في هذا الفهم ، واسرار تكوينه واكتشاف هذا التكوين .

ليس المقصود هنا المقارنة تماما بين هذه الاشارات الاخيرة والنقد الذي نشر، ولا يزال، على صفحات الاداب ، لان بعضه لم يكتسب هذه الصفة ، ولكن المقصود الاشارة الى المساهمة التي قام بها بعض المبدعين في توضيح الدفاع عن العمل الذي قدموه . فانشعر ما كان ليكتسب ملامحه الواضحة او تتحدد مسيرته التاريخية من حيث الزمن تولا المساهمات البارزة التي قدمها السياب ونازك الملائكة والبياتي وكاظم جواد وبلند الحيدري وعبدالصبور وغيرهم . لقد كان لتوضيحاتهم اثر في تسهيل عمل النقد في وقت لاحق . . او ربما في تقصيره ! وقد تم ذلك كله ، او اقسام الاكبر منه ، على صفحات الاداب ، ومن خلال المعارك التي نشأت على هامش الشعر الحر .

وما يقال عن الشعر الحر يقال ايضا عن الكثير من القصص والروايات ، او بكلمة اشمل ، عن العملية الروائية . تطورها ومدارسها وبرز كتابها .

ان هذه القضايا ، واخرى غيرها ، امثلة في عملية تأسيس الحركة النقدية المعاصرة ، هذه الحركة التي عبرت عن نفسها بعدة اتجاهات ومدارس ، والتي استمرت في التطور والتراجع تبعا لعوامل كثيرة .

اما الباب الذي استحدثته الاداب في وقت مبكر ، « قرأت العدد الماضي من الاداب » ، والذي تناوب على الكتابة فيه مجموعة كبيرة من النقاد والمتابعين ، فقد كان اضافة نوعية الى الصحافة الادبية العربية ، واصبح تقليدا ايجابيا مفيدا للكتاب والقراء معا ، حيث كان بمثابة الدليل الذي يرشد ويؤشر لقضايا كثيرة ، ما كانت تستوقف القارئ لولا هذه الاشارات ، وكان بمثابة الانذار او الاشارة المبكرة لعدد من الكتاب ، شعراء وقصاصين ودارسين ، بحيث يأخذ كل صاحب حق حقه ، وبشكل عاجل ، دون انتظار المصادفات او العلاقات الشخصية او بعض الاعتبارات الاخرى غير الموضوعية .

لقد كان هذا الباب بابا كبيرا لابرار المواهب واقامة الحوار المتصل بين الذين يكتبون والذين يقرأون ، وكان بمثابة رئاسة تحرير اضافية تراقب وتقيم ، وان كان بعد

هاما من قيمتها من حيث توقيت ظهورها ، لان هذا التوقيت لا ينفصل عن الحس التاريخي بضرورة المساهمة في التفسير والبحث عن الافضل ، او التبشير به . وان المجلات تكتسب جزءا من جدارتها التاريخية من خلال اكتشاف هذه الظواهر الايجابية وتقديمها وتهيئة الفرصة لانتشارها ووصولها الى اقصى الامكنة .

قد يبدو شعر الارض المحتلة لان اقل بريقا ، نتيجة التعود او نتيجة المرحلة الراهنة التي تمر بها المنطقة العربية ، لكنه يبقى احدي الظواهر البارزة في هذه المرحلة . . وفي المرحلة اللاحقة .

## النقد

في نطاق تأسيس حركة فكرية متكاملة شجعت الاداب ، وعلى نطاق واسع ، حركة النقد ، واصبحت منبرا هاما ، وطوال الفترة الماضية ، لهذه الحركة اكثر من اية مجلة اخرى .

ان هذا الموقف يشير بوضوح الى مدى الاهمية التي يتمتع بها النقد الادبي والفني ، من حيث كونه عنصرا مبدعا أولا ، ومن حيث مساهمته في اضاءة العمى الابداعي ، وابرار الجوانب الايجابية والسلبية فيه ثانيا . ومن حيث الرغبة في تكوين مدارس نقدية موضوعية وعصرية تتناول العملية الابداعية من جوانبها المتعددة والمختلفة ، اخيرا .

هذا اتفهم الدور النقد لم يكن موجودا بثبات ووضوح قبل الاداب ، فقد كان ، اغلب الاحيان ، عملا هامشيا وذاتيا ، وكان ينصب على الاجزاء ولا يتناول العملية الابداعية بكاملها . ومن جميع جوانبها ، اضافة الى الطابع غير الموضوعي الذي اتسم به القسم الاكبر ، من خلال المساجلات والقسوة وعمليات التحريض ، في نفس الوقت الذي افتقد فيه الاسس المنهجية التي تساعد على اقامة بناء متكامل وتام للعملية النقدية .

الطريقة التي اتبعتها الاداب في فهم العملية النقدية وممارستها اقامت الكثير من الجسور بين المبدع والناقد ، واقامت جسورا بين هذين الاثنين من ناحية والقراء الذين كانوا شهودا وحكاما في نفس الوقت ، من ناحية ثانية . فحين يتناول الناقد عملا من الاعمال ويحلله ويفسره واخيرا يقيمه ، ثم يأتي صاحب العمل ليقول رايه في طريقة العمل ثم في نتائجه وفي راي الناقد . . ان هذه العملية بالاضافة الى اهميتها الخاصة ، والتي تلقى اضواء اضافية ، قد لا يتاح لها الظهور لولا نشوء هذه العلاقة وضمن هذه الصيغة ، تساعد كثيرا في توضيح جوانب عديدة في العملية الابداعية ، وتشكل اضافة نوعية تساعد الناقد نفسه على ان يفهم العمل بشكل افضل وتساعد القارئ ايضا ، وتعطي العملية الابداعية صفة الحياة والحيوية ، وتكون نتائجهما في النهاية كبيرة الاهمية .

النشر ، ولقد ساعد على انتزاع الفرور وتثبيت المقاييس وترسيخ تقاليد أكثر ايجابية وموضوعية في النقد .  
واخيرا ..

ان رحلة الذاكرة كثيرا ما تخون .. او تضعف وتتداخل، واذا كان جزء من سعادة الانسان ، على المستوى الشخصي ، قدرته على النسيان ، فان هذه السعادة لا تلبث ان تتحول الى تعاسة على المستوى العام .  
لا شك ان عددا من الباحثين سوف يتصدى الى كل نقطة من النقاط وأشار إليها سابقا ، وربما كان كل عنوان بحثا مستقلا او اكثر من بحث .. وبالرغم من انني كنت قد التزمت بالكتابة عن موضوع محدد : « مفهوم الحرية في مسيرة الاداب خلال ربع قرن » فان الموضوع من الخطورة واتساع المدى لدرجة انه بحاجة الى التفرغ والبحث المستقصي والعودة الى اوراق الحياة اليومية لا الاعتماد على اوراق الذاكرة .. واذا افلتت الفرصة هذه المرة فقد لا تفوت في مرة لاحقة ، هذا مع الاشارة الى الترابط الحي والمتشابك في الكثير من العلاقات ، وان كل قضية تعكس القضايا الأخرى وتعطيها ابعادا اكثر وضوحا وتحديدا .

ان ازمة المنطقة قبل ولادة الاداب .. وبوجودها خلال ربع قرن .. والآن .. وفي المستقبل المنظور .. ان الازمة بالدرجة الاولى والرئيسية ، هي ازمة الديمقراطية ، ازمة حرية التعبير والعمل ، وما دامت هذه الازمة موجودة فان الكثير من القضايا ستبقى معلقة وبحاجة الى حل .

ان الانظمة الحاكمة في المنطقة كلها لا تؤمن بالديمقراطية ، او تحول الديمقراطية الى صيغ ومفاهيم كاريكاتيرية ، وحتى هذه الصيغ والمفاهيم موجودة بمقدار ما تخدمها وتساعد على استمرارها ، وفي الوقت الذي تعجز هذه الصيغ عن تلبية حاجاتها او تصبح خطرا عليها ، فان اول من ينفذ عليها هم الحكام انفسهم . وفي الجانب الاخر فان الجماهير العربية لم تتوصل بعد الى قناعات كاملة ونهائية ، وعملية ايضا، في اعتبار الديمقراطية الشرط الاساسي لتطورها وتقدمها .. ولا تزال عرضة للكثير من المؤثرات، وعمليات التضليل ، والتي تصور الديمقراطية وكأنها ترف او قضية ثانوية ، او ان دورها في قائمة الاولويات يأتي في نهاية السلم ، نظرا لتجارب « الديمقراطية » البائسة التي طعمت في بعض اجزاء المنطقة خلال فترة معينة ، ونظرا الى ضعف الممارسة الديمقراطية على المستويين العام والخاص ، داخل المجتمعات او داخل الهيئات ، ولم تصبح هما يوميا له منطقته وضروراته .

هذه الحالة من التعميد والتشابك جعلت الديمقراطية تضمر وتضعف ، وتأخذ اشكالا مشوهة . ولقد وقع المثقفون انفسهم في اخطاء المفاهيم والتطبيقات .. حتى ان عددا منهم ساهم في ااد الديمقراطية وتشويهها وخلق مزيد من الارتباك في صفوف الجماهير الشعبية ، ولقد انعكس ذلك كله على النضال الثقافي والشعبي ، وبدات

موجة من التراجع والانتكاس تعم المنطقة ، وستبقى كذلك في فترة لاحقة من الزمن، او الى الوقت الذي تصبح الديمقراطية حجر الزاوية ، وتأخذ اشكالا وصيفا واضحة ومحددة وعملية ايضا .

لقد جرت عمليات تبادل واحلال للقضايا والمفاهيم في الفترة السابقة ، واعتبرت بعض القضايا اكثر اهمية، او لها اولوية اكثر من غيرها ، لكن ضمن منطقي الفكر المجزا او الانتقائي، وليس ضمن المنطق الجدلي ، وثبت بالتجربة ان المنطق الاول لم يؤد الى الخطأ فقط بل والى التدهور والتراجع ، والى ضرورة البدء من جديد . وثبت ايضا ان الفرضيات الخاطئة سوف تؤدي بالضرورة الى نتائج خاطئة . وهذه النتائج لا تنعكس على الجماهير بخبرها وتقدمها وحررتها ومساهماتها فقط ، بل وتنعكس ايضا ، وبدرجة اكبر ، على عملية الزمن ، ففي الوقت الذي بدأت بعض الاقطار تضع اقدامها على اول الطريق الصحيح ، وقدمت نموذجا ايجابيا يمكن ان يستمر وينمو مع الايام ، لم تلبث عمليات الاحلال والتبادل التي بدأت في فترة معينة ان قلبت الامور وغيرت مسيرتها ، وحولتها بالتالي الى مجموعة من الهزائم والانتكاسات ، وادت الى اضاءة وقت طويل . والى خلق حالة من الفوضى والارتباك .

من هنا تقضي الضرورة ان تبدأ من جديد ، وبجسارة عملية مراجعة جدية للفكر العربي ، بمفاهيم النظرية وتطبيقاته العملية ، وان تطرح كافة القضايا طرحا عميقا وواسعا وجريئا ، من اجل اختيار الطريق الملائم بطبيعة المرحلة وبطبيعة التطورات التي دخلت العصر ، خاصة في الربع الاخير من هذا القرن . وأن طريق ذلك كله بالديمقراطية .

ان الديمقراطية المطلوب الاقتناع بها واشاعتها وممارستها لا تشكل شرطا ضمن شروط كثيرة لبدية الانتقال ، وانما ان شرط الاساسي والاول والاهم ، وهذا الشرط لا يمنح من احد ، ولا يتم اتوصول اليه بسهولة، ولا يتحقق بشكل عفوي وعبر التطور البطيء ، وانما بحاجة الى ثورة ، ثورة من نوع خاص، وربما كان المثقفون الصادقون الملتزمون اكثر قدرة ومهيئين قبل غيرهم واكثر من غيرهم لتوضيح معالم الطريق الجديد .

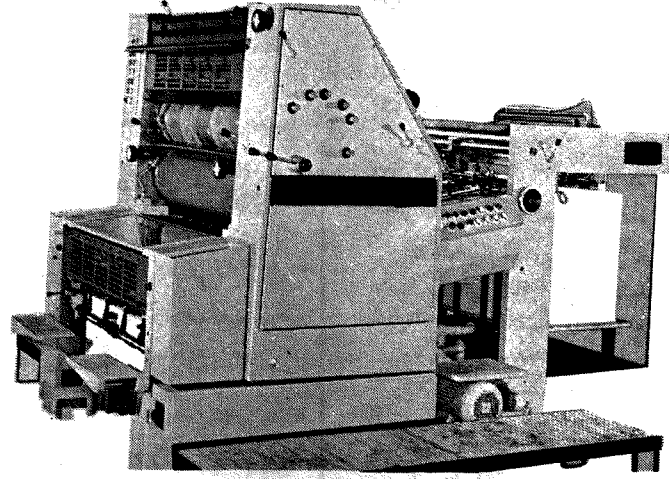
.. واذا كانت بداية اللقاء مع الاداب في شباط ١٩٥٤ او اول ذكرى لاحقة .. وفي ظل اجواء من نوع خاص .. فان ذكرى ذلك اللقاء في ذلك الشتاء البعيد مقترنة بنوع من الانتظار الممض : انتظار سقوط الديكتاتورية ..

وان بداية جديدة للاداب يجب ان تنهض الان .. في صيف ١٩٧٧ الالاهب القاسي ، والمليء بالمفاجآت .. وليس عبر راديو من الحجم الكبير الذي كان شائعا في تلك الايام ، وانما عبر تلك الاجهزة الصغيرة التي انتشرت في كل مكان ، حتى مع اترعاة في الجبرود والوديان العميقة والصحاري البعيدة .. ويمكن عبر تلك الاجهزة ان تنتقل اخبار كبيرة : سقوط الديكتاتورية

جميع الناس ،وتصبح افكارهم وتتحول اخيرا الى ممارسة  
يومية تنتهي الى طوفان يسمح كل شيء امامه .  
لنتنظر .. لكن ليس ذلك الانتظار الابله .. وانما  
ذلك الانتظار الواعي الصبور .. وانذي لا يتوقف عن العمل  
والتحريض .. لحظة واحدة .. وان انتظارا مثل هذا  
سيكون عظيما وخطيرا !

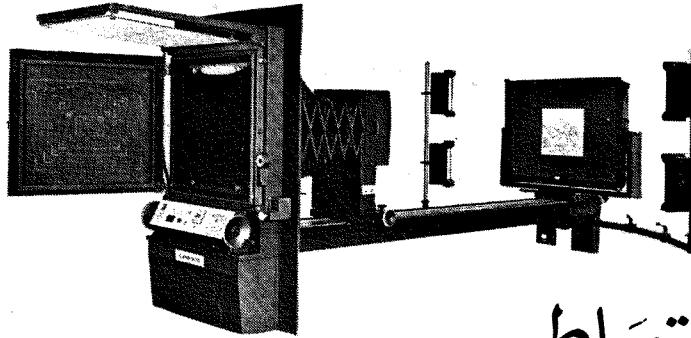
د . عبد الرحمن منيف

العربية « الجديدة » وبداية نهضة الشعب لممارسة دوره .  
وربما جاءت مفاجآت كثيرة من حيث لا يقدر  
الانسان ولا يتوقع ، كما جاء شعر الارض المحتلة ، وكما  
جاءت الانتفاضات الكاسحة .. وكما سقطت ممالك كبيرة  
بدت في بعض اللحظات وكأنها خلقت للابد !  
يجب ان نتأكد ان اكبر الثورات واخطرها في حياة  
الشعوب تبدأ ، في مرحلة من المراحل ، حلما في رأس ،  
ثم فكرة .. ثم تصبح ممارسة .. وعندها تصبح احلام



مؤسسة جواد للطباعة والتصوير

لصاحبها: علي محمد جواد



تتعاطي  
جميع أنواع الطباعة الفنية بالأوفست  
وتحضير جميع أنواع البلاكات الأوفست  
من كتب مدرسية وأدبية ملونة وغيرها

بيروت - لبنان - شارع الزهراوي - ملك بزي - تلفون ٢٩٠١٣٣ - ٢٣٢٦٦٤